لا يهمني

تأليف: دينا عفيفي
رسم: نهال كمال

قصة: لا يهمني

تأليف: دينا عفيفي

رسم: نهال كمال

(عن حب الوطن: قصة حقيقية عن فتى مصري خلال الاحتلال الفرنسي لمصر)

لا يهمني

في قرية الفقاعي بمحافظة بني سويف في مصر.. وفي القرن الثامن عشر، كان يعيش عبد الستار. كانت القوات الفرنسية منتشرة في كل أنحاء مصر، حتى محافظات الصعيد. كانت القوات الفرنسية شأنها شأن أي محتل تتظاهر بأنها تريد أن تساعد الشعب المصري على المزيد من التحضر، لكن في الواقع أن هذه القوات ارتكبت العديد من المجازر في شتى المحافظات المصرية.

عبد الستار ولد عمره ١٢ عاما. كان يعيش مع أسرته في القرية، الأب وهو شيخ تلقى تعليمه في الأزهر الشريف، لذلك كانت له مكانة كبيرة وسط أهل القرية، وأمه التي لم تكن تجيد القراءة والكتابة مثل باقي نساء القرية وأخوته، خمسة من الأولاد وبنتان لم تلتحقا بالكتاب مثل الأولاد، ولكن كانتا تمكثان في البيت مع الأم لتتعلم كل منهما الطهي وكل ما يتعلق برعاية المنزل ومساعدة الأم.

التحق عبد الستار مثل باقي الأولاد في سنه بكتاب القرية، لكن عبد الستار لم يكن مثل باقي الأولاد، فقد كان مشاغِبًا، ومع ذلك كان شديد الذكاء. يريد دائمًا أن يسأل ويستفسر لدرجة كانت تزعج شيخ الكتاب في أحيانٍ كثيرة، لكنه كان يحاول أن يطاوعه ويحاول أن يجيب عن تساؤلاته قدر استطاعته. كان عبد الستار كذلك شجاعًا جدًا، لا يخشى شيئًا ولا أحدًا. نعم كان يحترم الكبار، لكن هذا لم يكن يعني الخوف منهم. كان دائمًا يقول لم أرتكب خطأً كي أخاف.

معروف عن أهل الصعيد أنهم لا يقبلون الذل والمهانة أبدًا، لم يتحملوا وجود القوات الأجنبية على أراضيهم، لذلك بدأت تتكون في القرية مجموعة لمقاومة القوات الفرنسية ووجودها على أراضيها. كان الشيخ محمود أبو عبد الستار هو من يتزعم هذا التنظيم. لم يكن أعضاء هذا التنظيم سوى رجال القرية. أصر الشباب الصغير وأولهم عبد الستار على الانضمام لهذا التنظيم. كانوا يعتبرون أن وجودهم مهمًا جدًا لأن سنهم الصغير ربما يصرف الأنظار عنهم وربما يساعدهم أكثر على القيام بالعمليات المطلوبة.

لم يتردد الرجال كثيرًا في الموافقة على انضمام الفتية للتنظيم. سعد عبد الستار كثيرًا لذلك. لم يكن يعرف الكثير عن الحرب أو القتال لكن بأي حال كان عنده استعدادٌ كبيرٌ للتعلم. كان يحب جدًا فقرة إلقاء الحجارة على جنود الاحتلال، أو استخدام "النبلة" في استهدافهم. وبما أنه كان صغير الحجم نوعًا ما، كان من السهل عليه الفرار سريعًا من مكان "الجريمة".

استمرت الحال على هذا المنوال، إلقاء الحجارة واستخدام "النبلة" في استهداف القوات الفرنسية، ثم ظهرت الحاجة إلى اتخاذ خطوة أكبر وأشد، أي استخدام الأسلحة النارية مع القوات الفرنسية. بقيت مشكلة واحدة "صغيرة"، لم يكن الرجال يمتلكون أي أسلحة نارية في الأساس ليستخدموها مع القوات الفرنسية.

إذًا، فالحل هو سرقة الأسلحة من القوات الفرنسية. شعر أعضاء التنظيم بالحيرة نوعًا ما لأنهم لم يعرفوا كيف يمكن سرقة هذه الأسلحة. هل يا ترى يكلفون أحد الرجال الكبار بالسرقة أم أن المناسب للقيام بهذا الدور أحد الصبية؟ أخذوا يتداولون ويتناقشون ثم وقع الاختيار في نهاية الأمر على أحد الصبية. ثم كان سبب الحيرة التالية هو مَن مِن الصبية يصلح لهذا الدور؟ إنه بالطبع.. عبد الستار. وقع الاختيار على عبد الستار.

بدأ التنظيم يعد عبد الستار لعملية سرقة الأسلحة. وجدوا أن الجنود يكونون في حالة استرخاء ليلًا، أي أنهم لن يكونوا في حالة يقظة وترقب، وان من الممكن جدًا أن يغفلوا عن الأسلحة ليلًا. بدأوا يراقبون الجنود المتمركزين قرب مدخل القرية. راقبوا هؤلاء الجنود ليلًا ونهارًا لمعرفة الوقت الملائم للسرقة. وجدوا بالفعل أن "الفرنسيس" كما كان يطلق عليهم المصريون حينئذ يتناولون وجبة العشاء ليلًا ثم يبدأون في الاسترخاء وتقل درجة تيقظهم، إذ كان بعضهم يغفو فعلًا، وهذا بالضبط هو الوقت المناسب للسرقة.

وضع التنظيم الخطة، دربوا عبد الستار على أساليب التسلل وقرروا التنفيذ في منتصف الليل في إحدى ليالي الصيف. الجو في الصعيد خانق جدًا، لذلك فإنهم يلجأون للتخفف من ملابسهم ثم وضع الأسلحة إلى جوارهم أثناء الراحة ورغم أن هناك مناوبات للحراسة، إلا أنهم يتخلون عن حرصهم في هذا الوقت من الليل.

في الليلة التي من المفترض أن يتم فيها التنفيذ، طلبت أم عبد الستار منه أن يقرأ الآية "وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون"، وطلبت منه أن يقرأ خواتيم سورة البقرة وقبل أن يبدأ في تنفيذ الخطة بالفعل أن يقول بسم الله الرحمن الرحيم. توجه عبد الستار إلى المكان الذي يرابط فيه الجنود. عرف أن عليه الانتظار وأن يختبئ وألا يحدث أي صوت. ظل منتظرًا فترة طويلة، لم يعلم بالضبط الوقت المنقضي لأنه لم توجد ساعات يد في ذلك الوقت، لكنه شعر بأن الوقت يمضي بطيئًا جدًا.

وفي اللحظة الحاسمة، وجد عبد الستار أن الجنود بدأوا يشعرون بالنعاس. رآهم وهم يتناولون الطعام ثم يتخففون من الملابس، وشعر بأن اللحظة حانت. تلا عبد الستار كل الآيات التي يحفظها عن ظهر قلب وقرر الانطلاق قائلا: "بسم الله الرحمن الرحيم". سار عبد الستار وكان قلبه ينبض بشدة، ظل قلبه ينبض بقوة لدرجة أنه ظن أن قلبه سيخترق صدره. وضع عبد الستار يده على صدره وحاول التنفس بهدوء حتى يهدئ من هذا القلق. ظل يسير هذه المسافة ولم يكن يعلم أحد بحاله، ولم يدرِ أحدٌ بقدر الخوف الذي كان يشعر به، لكنه أكمل المسير.

وصل أخيرًا إلى المكان الذي وجد فيه جنديين ينامان في سبات عميق. وجد بندقية بجوار كل واحد منهما، فأسرع بإمساك البندقيتين وكانتا ثقيلتين جدًا لكنه حمل كل واحدة على كتف ولاذ بالفرار سريعًا قبل أن يستيقظ الجنديان. كان عبد الستار رشيقًا وسريعًا ونحيل الجسم، لذلك لم يجد صعوبة في الحركة السريعة الخاطفة. ظل يجري ويجري ونظر وراءه ليتأكد من أن الجنديين ما زالا نائمين، فأكمل الجري دون أن ينظر وراءه مرة أخرى.

وصل عبد الستار أخيرًا إلى مقر التنظيم في دار الشيخ محمود، استقبله الجميع استقبال الأبطال بالطبع. هذه أول عملية للتنظيم يستهدفون فيها "الفرنسيس" داخل القرية، ولله الحمد نجحت العملية. وعندما دخل عبد الستار إلى مقر التنظيم قال بأعلى صوته: "الله أكبر.. وِل يا وِل.. وِل يا وِل[1]".

استقبله والده مستبشرا ومتسائلًا:

- بشرك الله بالخير يا ولدي، أخبرني ماذا حدث؟

- كل خير يا أبي. لن تصدق كيف كانت سهولة العملية. كان هناك جنديان وحدهما، ظللت أراقبهما جيدًا. وجدت أنهما بدآ يشعران بالنعاس بعد تناول العشاء وتخففا من ملابسهما، ووضع كل منهما سلاحه إلى جواره وراحا في سباتٍ عميق. كانا يغُطان وكنت أسمع غطيطهما المرتفع جدًا.

- فعلا؟ هذا عجيب. كيف يتخليان عن حرصهما لهذه الدرجة؟

- تخيل يا والدي؟ واضح أنهما لم يفكرا أبدًا في هذا الاحتمال.

- ماذا بعد يا بُنَيّ.

- لا أخفي عنك يا أبي كنت خائفًا جدًا ولكني استعنت بالله. تقدمت في اتجاههما وخطفت السلاحين وظللت أركض بسرعة إلى أن وصلت إلى هنا

- ممتاز يا ولدي، بارك الله فيك

- شكرا يا أبي. ماذا بعد هذه العملية؟

- يا بُنَيّ، كن صبورًا. نحن ما زلنا نناقش الخطط القادمة

- لا أستطيع الانتظار يا أبي. أتمنى أن أشارك في العملية التالية

- فلتصبر يا عبد الستار

---

[1] وِل يا وِل تعبير مصري معناه مرحى، يُطلق للتعبير عن الفرحة بإنجاز ما

- أريد أن ألقن هؤلاء الفرنسيس درسًا قاسيًا

- كلنا يا ولدي، كلنا

بدأ التنظيم يناقش الخطوات التالية، رأى أفراد التنظيم عدم تكرار العملية ذاتها على الفور، بل لابد من الانتظار فترة من الوقت حتى لا يفقدوا عنصر المفاجأة. يُمكنهم تنفيذ عمليات أخرى، مثل أن ينصب الرجال كمينًا للجنود بقطع طريقهم، أو أن يرشق الصبية الجنود بالحجارة مرة أخرى، وسيكون في هذا الأمر بالتحديد إهانة شديدة لهم. بالفعل كانت العملية التالية هي نصب كمين لمجموعة من الجنود كانت تمر على الطريق الرئيسي للقرية. ترصد أفراد التنظيم بقيادة الشيخ محمود للقوات الفرنسية وسدوا عليهم الطريق بجذوع النخيل، فلم يتمكن الجنود من مواصلة السير إلا بعد إزالة هذه الجذوع من على الطريق. كان هذا يعني أن القوة لابد أن تترجل من على الخيول التي كانوا يركبونها. وبعد أن نزل الجنود السبعة لإزالة جذوع النخيل، هجم عليهم أفراد التنظيم بالفؤوس والمناجل. استولوا على أسلحتهم أيضًا. هذه المرة كانت المحصلة سبع قطع من الأسلحة الفرنسية، إلى جانب خيول الجنود. حصيلة لا بأس بها على الإطلاق! بأي حال، هذه القوات استولت على الخيل من القرية والقرى المجاورة، لذلك، فقد عادت الخيول لأصحابها.

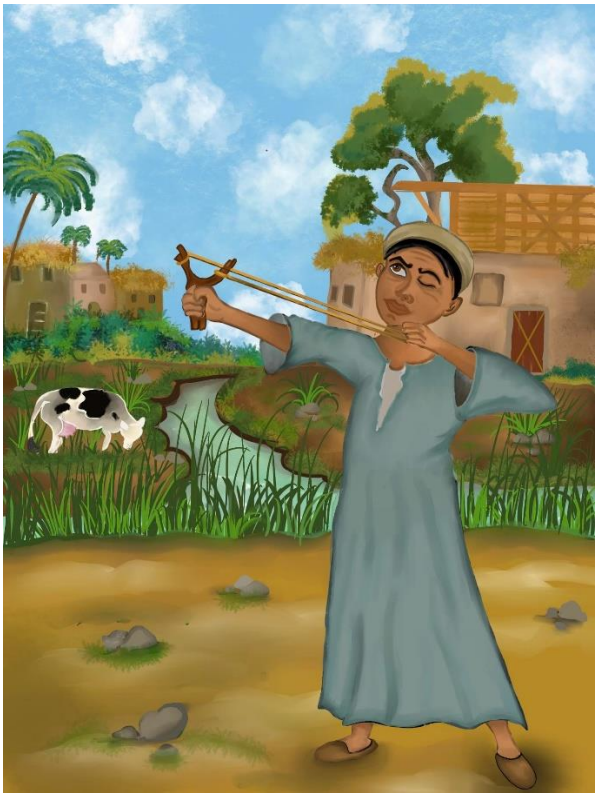

كانت العملية التالية تهدف إلى هز ثقة "الفرنسيس" والإساءة إلى صورتهم وإظهارهم في مظهر الضعف. طلبوا من الأولاد ومنهم عبد الستار بالطبع رشق القوات الفرنسية التي تمر بالطريق الرئيسي

للقرية بالحجارة. طلبوا من الأولاد الإمساك بالنِبال واستخدامها في إلقاء الحجارة على الجنود المحتلين. وهو ما تم بالفعل. كان الصبية يجتمعون وكان كل منهم يحمل النبلة (أو المقلاع) ويمسك بالحجارة ويضعها في النبلة ثم يُطلق الحجارة على الجندي. كان الأولاد يسعدون جدًا عندما يتمكنون من إصابة أحد الجنود. وكانت نتيجة مثل هذه الهجمات إصابة الجنود بالذعر وفرارهم من المكان بأكبر سرعة لديهم.

فكروا في تكرار عملية مهاجمة الجنود ليلًا. تمكن عبد الستار من القيام بعملية أخرى ناجحة بالفعل، ولاذ بالفرار سريعا وتمكن من الاستيلاء على بندقية واحدة فقط هي التي وجدها مكان تمركز جنديين آخرين. وبعد مرور نحو أسبوعين، طلب عبد الستار من الشيخ محمود تكرار العملية، حيث إن هذه العمليات تُشعره بسعادة غامرة. لم يكن الشيخ محمود متحمسًا بصورة كبيرة لتكرار العملية، وكان أيضا خائفًا على عبد الستار، لكن بعد تداول مع باقي أعضاء التنظيم ومع إلحاح عبد الستار، وافق الشيخ محمود على مضض على تكرار عملية الهجوم على الجنود ليلًا. لكن في تلك المرة، كان الكمين منصوبًا لأي كان الذي يقوم بهذه العمليات. أراد الفرنسيون معرفة من الذي يرتكب هذه الحوادث لينتقموا منه أشد انتقام. نصبوا الكمين ووقع عبد الستار في الفخ للأسف!

تظاهر الجنديان المتمركزان في أحد أركان القرية بالنوم، وظلا بلا حركة إلى أن وجدا أن شخصًا ما يقترب منهما، وفي تلك اللحظة هب الجنديان واقفين وأمسكا بعبد الستار من جلبابه. اندهش الجنديان جدًا من سن هذا الفدائي. إنه مجرد طفل، تمكن عبد الستار من الفرار والجري لمسافة لكن الجنديين تمكنا من القبض عليه في النهاية ولم يرحماه، ضربه الجنديان بلا رحمة، بل وجرح جندي عبد الستار في ذراعه بالسيف، وقاداه إلى قائد القوة المتمركزة في بني سويف كلها الجنرال ديزيه على بعد عدة كيلومترات من القرية. اندهش جدًا من صِغر سن هذا المتهم. سأله مستجوبا من خلال مترجم يستعينون به:

- من الذي حرضك أيها الفتى الشقي على مهاجمة جنودنا؟

- لا أحد

- كيف لا أحد؟ كيف لفتى في عمرك أن يفكر في مثل هذه العمليات بمفرده؟

أجاب عبد الستار وهو ينظر للسماء:

- الله سبحانه وتعالى هو الذي أمرني. أنا أدافع فقط عن بلدي، ديني يعلمني هذا

- لا تريد أنت تعترف بمن حرضك، ها؟ أنت ولد ماكر

- لم يحرضني أحد

- أنا لا أصدقك أيها الفتى، لابد أن تنال عقابك وجزاؤك

- لا يهمني. يمكنكم أن تقطعوا رأسي. لا مشكلة

شعر الجنرال ديزيه بالغيظ الشديد، لكنه حكم على عبد الستار بالجلد ٣٠ جلدة. لم يستطع أن يقتله أو يحكم عليه بحكم أشد. لم تهتز لعبد الستار شعرة واحدة، تحمل العقوبة كلها دون أن يبكي أو حتى يصدر عنه أي صوت يدل على الألم. لم يصدق الجنود الفرنسيون ما يرونه من شجاعة وقوة هذا الفتى. الجنرال ديزيه نفسه كان مندهشًا جدًا. أطلقت القوات الفرنسية سراحه. وفي الوقت ذاته، كاد القلق أن يقتل الشيخ محمود، سمع أنباء عن أن "الفرنسيس" تمكنوا من القبض على الفتى الذي كان يحاول سرقة الأسلحة. لم يعرف كيف يمكنه أن يطمئن على مصير عبد الستار. يا ترى ما الذي حدث له؟

في اليوم التالي، وصل عبد الستار إلى قريته الفقاعي وهو مصاب في ذراعه بسبب ضربة السيف التي وجهها له الجندي، هذا بالإضافة إلى الجروح التي أصيب بها بعد عقوبة الجلد. طرق باب منزله، فأسرع الشيخ محمود لفتح الباب، وكانت زوجته إلى جواره. لم يصدق الشيخ محمود أن ابنه نجا من القوات الفرنسية. كان يظن أنهم سيفتكون به. احتضنته أمه بشدة واستسلم عبد الستار لهذا الحضن. كان يشعر بالتعب والألم الشديد بعد كل ما تعرض له من ضرب وعقاب. أخذته أمه وداوت له جراحه وأطعمته. لم يتناول عبد الستار الطعام منذ الليلة الماضية. بالطبع كان يشعر بالجوع الشديد، فالتهم الأكل فورًا.

وبعد أن تركه الشيخ محمود ليرتاح قليلًا قال له:

- يا ولدي، أرجوك احكِ لي ما الذي حدث؟ كيف قبضوا عليك وكيف تركوك في النهاية؟

- لن تصدق يا أبي. كانوا للأسف ينصبون كمينًا لي. تظاهر الجنديان اللذان كانا موجودين الليلة الماضية بالنوم. انتظرا قربي منهما وتمكنا من الإمساك بي. حاولت أن أجري وجريت بالفعل منهما بسرعة كبيرة لكنهما أمسكا بي في النهاية واقتاداني إلى قائدهما على مسافة كبيرة من قريتنا.

- وكيف تركوك؟ يا ولدي كنت أظن أنني لن أراك مرة أخرى

- الحمد لله يا أبي، هذا من فضل ربي. استجوبوني وظل قائدهم يسألني عمن حرضني ولكني أنكرت أن هناك محرضين. حكموا عليّ بالجلد، وتركوني بعد هذا العقاب

- هكذا؟ بمنتهى البساطة؟

- نعم يا أبي. تخيل؟ كنت أرى نظرات الإعجاب في عيون القائد وفي عيون الجنود الفرنسيس. كانوا مندهشين جدًا لأنني لم أبكِ. كانوا يتوقعون مني أن أبكي مثل الأطفال لكن بالطبع لم أكن أبدا لأبك كالأطفال، فأنا ابنك الرجل يا أبي

- بارك الله فيك يا بُنَيّ. حماك الله

بعد ما حدث لعبد الستار، قرر التنظيم أن يقلل من معدل العمليات التي ينفذها ضد القوات الفرنسية. كان أفراد التنظيم يريدون فقط أن يبدأ الفرنسيون في الشعور بالطمأنينة مرة أخرى حتى يتصرفوا بطبيعتهم ثانية، وحينئذ يستأنفون مرة أخرى العمليات ضد "الفرنسيس".

"الغلام، جرى بأسرع ما يستطيع وهو يخفي السلاح تحت جلبابه ولم يقف إلا بعد أن أصابه الجندي بجرح سيف في ذراعه... وظل طوال الوقت هادئًا هدوءًا عجيبًا، وأبدى قوة خلق نادرة." (مقتطف من مذكرات مؤرخ فرنسي اسمه مسيو فيفان دينون). ☺☺